فظائع الجزار

اشار الكولونل تشرشل الى فظائع الجزار في كتابهِ عن لبنان فقال "ان سرد فظائعهِ كلها امر صعب تشمئز منهُ النفوس . ووصف صفات ليس فيها صفة رضية لا ترتاح اليهِ الطباع. فاذا اشرت الى اخلاق حاكم أُبيح لهُ ان يجري على اهوائهِ ثلاثين سنة وهي من اتيح الاهواء التي ترددت في صدر انسان من غير ان يُردع عنها ولو بكلمة توبيخ او انذار فليس غرضي من ذلك اظهار القبائح التي ترتعد من ذكرها الفرائص ولا وصف سيرة بلغت ادنى دركات الشر والفضيحة بل توجيه الانظار الى حقيقة تلك الحكومة التي كان نائبًا عنها وفعل افعالهُ باسمها ولم يشذَّ عن خطتها" وبعد ان اورد هذا الكلام الجارح قال ان الجزار كان يميل الى انشاء المباني وجمع الكتب وقد ذُكر لهُ ذلك كفضيلة اتاها وكدليل على محبتهِ للعلم والعلماء ولكن المطَّلع على سيرتهِ واخلاقهِ يرى ان هوى نفسهِ الذي حملهُ على جمع الكتب كان يمكن ان يحملهُ على حرقها كلها في ساعة واحدة بل لا يبعد انهُ لو توفَّق اصحاب تلك الكتب التي ابتزها منهم ابتزازًا عن تسليمها لهُ لحرقها وحرقهم معها لان الفرن كان من آلاتهِ التي يرغب فيها وكثيرًا ما زجَّ الناس فيهِ احياء اذا انكروا عليهِ اخذ اموالهم . واذا اراد ان يعترف لهُ احد بشيء وهو ينكرهُ فكثيرًا ما كان يأمر باحماء طاسة من النحاس وتليينهِ اياها على رأسهِ حتى يحتر دماغهُ ويتذكر ما يريد تذكيرهُ بهِ ولا يزال سيف بيروت رجل ابتزَّ كل اموالهِ وبقي يظن ان عندهُ اموالاً غيرها فاحمى صاجًا من الحديد واجلسهُ عليهِ عاريًا

ومن مبانيهِ التي تستحق الذكر مسجد وحمام يعجب بهما كل من يراهما من السياح لكنهُ نهب لاجلهما انقاض المباني القديمة في قيصرية وصور وعسقلان وتحفر الناس سخرة في بنائهما ونقل الحجارة والاعمدة اليهما. وكان يذهب بموكبهِ عصر كل نهار لمشارفة العمل فيسير الانكشارية في مقدمة الموكب وهم بالسلاح الكامل ووراءهم التفكجية على الاقدام ويد كلٍّ منهم سوط من جلود الثيران ثم الجلاَّد ويدهِ البلطة التي يقطع بها الرؤوس ووراءهُ الجزار على ظهر جوادهِ ويأتي بعدهُ جمهور كبير من الخصيان والمماليك والشبجية والخدم والحشم وكلهم طوع امرهِ ورهن اشارتهِ . ويُبسَط لهُ بساط في مكان مرتفع يشرف على العمل فيجلس عليهِ والسيف في يدهِ وهو يجيل طرفهُ في ما امامهُ وعيناهُ كعيني النسر حتى اذا رأى احدًا واقفًا عن العمل امر بقطع رأسهِ لكن الخوف منهُ كان يريح الجلاَّد غالبًا من

القيام بما أُمر به لان الشيء الذي يأمر بتنفيذه يموت من شدة خوفه . وهناك كان يخرج تنهد الناس من التعب بصراخهم من الالم واصوات السياط بأنين المتوجعين . على هذه الصورة رُمّت اسوار عكاء وابراجها

وان كان الجزار قد ابدى ما ابدى من الظلم والقسوة البربرية في معاملة رعاياه فلم يبدِ اقل منهما في معاملة نسائه وسراريه بل لا يذكر في تاريخ البشر شراسة تضاهي شراسته في الانتقام من الغواني رابهُ ارهنّ من نسائه

وتفصيل ذلك انهُ اراد الذهاب الى الحج سنة ١٧٩٤ فاستأذن الباب العالي في ذلك فوجّهَ اليه ايالة الشام وامّرهُ على الحج وكان عندهُ نحو مئة من النساء والسراري فاوصى الخصيان ان يشدّدوا المراقبة عليهنّ في غيابه لا سيما وان حرسهُ الخاص كان مؤلفاً من اربع مئة مملوك من اجمل شبان المشرق ولم يكن يأخذ معهُ عادة لحراسته الاّ نصفهم والباقون منهم يبقون في السراي ولا عمل لهم غير تدخين التبغ واللعب والمزاح . والظاهر ان السراري كنّ يرينهم من كوى غرفهنّ

وعاد الجزار من الحج وبلغهُ ان الخزندار والسرعسكر دخلا دار الحريم في غيابه فعزم على الفتك بهما وبانصارهما وجعل يراقب حركات السراري وسكناتهنّ فرأى مرةً طاقة من الازهار مع خادم اسمهُ نعوم ثم رأى تلك الطاقة عينها مع واحدة من السراري تنظر اليها متبسماً وقال لها من اين اتيتِ بهذه الازهار يازليخة . فقالت من الجنينة يامولاي فقال لها باسماً قولي لي الصحيح يا بنتي ولا تخفي عني شيئاً فقد رأيت هذه الازهار مع نعوم الخادم فقولي لي من ارسلها اليكِ فازوجكِ به ولقد كنتُ قاصداً من زمن طويل ان اجد لك عريساً لائقاً . فاغتاظت بكلامه وقالت لهُ ان الخزندار ارسلها اليها

وكان قبل ذلك قد عزم على الفتك ببعض مماليكه انتقاماً منهم وتأديباً لغيرهم كما تقدّم فاستدعى سليم باشا السرعسكر وقال لهُ اني عازم على تأديب الامير يوسف امير لبنان فكن مستعداً لذلك ثم كتب الى المشايخ يستنهض همتهم ويدعوهم لمقابلة رجاله في خان مرج عيون قرب حاصبيا . فجمع سليم باشا عساكر الهوّارة والارناؤوط والدالاة وقسم الجزار مماليكهُ الى قسمين وارسل قسماً منعا مع سليم باشا وابقى قسماً في عكاء لكي يضعف قوتهم وكان الخزندار بين الذين ابقاهم في عكاء . وسار سليم باشا برجاله وخيّم قرب حاصبيا . وبعد ذلك بقليل جرى الحديث السابق بين الجزار وبين زليخة فلما اعترفت لهُ ان الخزندار هو الذي ارسل اليها الازهار قام ونزل بها الى جنينة القصر والبلطة في يده وقبض على شعرها

ورماها على الارض وقال لها اخبريني يا لعينة من شاركك من بقية السراري . فجعلت تتوسل اليه لكي يرحمها وقالت انها هي وحدها المذنبة ولا شريك لها في ذنبها اما هو فرمي الباطة من يده واستل سيفهُ وقطع رأسها ثم امر فاتوهُ بثلاث غيرها فاحتزَّ رؤوسهنَّ بيده ونادى باربعة من الهوَّارة فحضروا اليهِ وامر باحضار سائر السراري فصاروا ينزلونهنَّ واحدة واحدة ويقتلونهنَّ وسُمع صياحهنَّ خارج دار الحريم فاجتمع الخدم والحشم وطار الخبر الى المماليك فاوجسوا شرًّا وجعلوا ينظرون بعضهم الى بعض مدهوشين لانهم كانوا يعلمون ما وراء ذلك واخيرًا قال واحد منهم ماذا تنتظرون من رجل ظالم لا يشفق ولا يرحم هلمَّ الى اسلحتكم وكان للخزندار غرفة عالية في برج من السراي وكانت الخزنة في ذلك البرج فلجأوا اليها واقفلوا باب البرج وكان من الحديد

وكان الجزار لا يزال جاريًا في مجزرته حتى اذا ذبح خمس عشرة من اولئك الحسان اللواتي لا ذنب لهنَّ غير جمالهنَّ وغيرتهُ العمياء عليهنَّ تجاسر احد الخصيان واخبرهُ ان المماليك لجأوا الى برج الخزينة وتحصنوا فيهِ فطار صوابهُ وامرهم بالخروج حالاً فقالوا لهُ اننا نراك لا تروى من شرب الدماء ولذلك لا نأمن على حياتنا واذا حاولنا اخراجنا بالقوة دافعنا عن انفسنا الى آخر رمق من حياتنا ثم نسف مخزن البارود (وكان ملاصقاً للخزينة) فنهلك ونخرب المدينة على رأسك ولكن اذا تركتنا نخرج بسلام فاننا نبعد عنك وعن عكاء ولا ينالك منا مكروه . فلما سمع هذا الكلام طار صوابهُ واطلق عليهم الرصاص بيده فجاوبوهُ باطلاق الرصاص حتى اضطرَّ ان يختبئ من وجههم

وانتشر الخبر في المدينة وسمع السكان صوت اطلاق البنادق فهالهم الامر وخافوا العاقبة فهربوا الى بيوتهم وامتنعوا فيها واخيرًا اخذت الجرأة المفتي وبعض المشايخ فاتوا الجزار وجعلوا يتوسلون اليهِ ليعفو عن مماليكهِ والاَّ فهو والمدينة وسكانها في خطر مبين لان المماليك اذا يئسوا من النجاة فلا بدَّ لهم من ان ينسفوا مخزن البارود . فرأى ان لا مناص لهُ من اجابة سؤلهم وقال اني اسمح لهم بالخروج ولكنني اريد ان يحضروا امامي لكي اوبخهم على انكارهم للجميل وكفرانهم بالنعم . وابى المماليك ان يجيبوهُ الى ذلك وابى هو ان يسمح لهم بالخروج مالم يحضروا اليهِ ومضت ثلاثة ايام على هذا النمط ولكن خمسة عشر منهم وهم الرجال وجدوا سبيلاً للفرار في غضون هذه المدة فخرجوا وقوَّموا خطواتهم الى خان حاصبيا حيث التقوا بسليم باشا ورجالهِ وقصَّ الخزندار قصتهم عليهِ وكيف خرجوا من البرج بعد ان ملأوا جيوبهم ذهبًا من صناديق الخزينة وكيف اعدَّ لهم بعض الاهالي خيولاً ركبوها ونجوا

فاتضحت واقعة الحال لسليم باشا فدعا بجميع خواص رجاله وخاطبهم قائلاً تروون ايها الاخوان هنا رجالاً من اخواننا اساء الباشا فيهم الظن فكاد يقتلهم شرّ قتلة ومن هو هذا الباشا هو رجل من العصاة اخوّنه هرب من دمشق واختلس الولاية اختلاساً اما انا فتعلمون ان مولانا السلطان ولاّني على صيداء فلهُ يجب ان اخضع لا لهذا العاصي ويجب علينا كلنا ان نظهر ولاءنا لولي نعمتنا ونتقم ممن عصى امرهُ وظلم عبيدهُ ولا غرض لهذا الطاغية من ارسالنا الى حرب الامير يوسف الاّ تفريق شملنا لكي يسهل عليهِ الفتك بنا فهلمّ نتحد مع الامير يوسف عليهِ ونرسل رأسهُ الى الباب العالي جزاء خيانتهِ

فسرّوا بهذا الكلام وارسلوا فارساً منهم اخبر الامير يوسف بما قرّ عليهِ قرارهم فاستحسن الامير يوسف رأيهم ومدّهم بالمال والرجال فزحفوا على صيداء وامتلكوها . وبلغ الجزار ذلك فأُسقط في يدهِ لان رجالهُ هجروهُ وكان مكروهاً من الجميع فاستدعى مشيريهِ الذين يثق بهم واستشارهم واحداً بعد واحد فاشاروا عليهِ ان يهرب و ينجو بنفسهِ فصرفهم مستخفاً بمشورتهم

وزحف سليم باشا باتباعهِ على سور قرآها قد اقفلت ابوابها في وجههِ خوفاً من الجزار وكان فيها حامية كبيرة لا تقل عن الفين لكن سليم باشا فتحها عنوةً في اليوم التالي ودخلها رجالهُ فنهبوا بيوتها وفعلوا فيها المنكر حتى رأت البلاد ان وطأتهم اشدّ من وطأة الجزار . وسار سليم باشا من هناك قاصداً عكاء ونزل خارج المدينة . فلجأ الجزار الى الحيلة وجعل يرسل اعوانهُ ليكلموا اصدقاءهم من المماليك ويعدوهم بالعفو والهبات ثم سلّح العمال الذين كانوا يعملون في مباني المدينة مع من بقي فيها من الجنود وامرهم بتبييت المماليك . ونام المماليك ورجالهم تلك الليلة وهم يحسبون ان الجزار خائف منهم ولولا ذلك ما كان ارسل يترضّاهم فلم يشعروا الاّ والجنود قد هجمت عليهم وهم نيام فنهضوا مذعورين وظنوا ان الهاجمين الوف مؤلفة وكبّر لهم الوهم الخطر الذي هم فيهِ فافترط عقدهم ولاذوا بالفرار . وحاول سليم باشا وسليمان آغا لمّ شعثهم وتشديد عزائمهم فلم يفلحا ولما رأيا ان الدائرة قد دارت عليهما فرّا الى دمشق والتقيا في طريقهما بفلول اتباعهما حتى اجتمع لهما نحو اربع مئة رجل . اما الدالاتة والارناؤوط فلجأوا الى الناصرة ثم ارسلوا يطلبون العفو من الجزار ففعا عنهم

والمماليك الذين بقوا في البرج عفا الجزار عن بعضهم وعاقب البعض الآخر بسمل العيون وجدع الانوف وصلم الآذان على مجاري عادتهِ . ثم ارسل بقية سراريهِ الى مصر وباعهنّ فيها واقتلع الاشجار من الحديقة ولم يبقِ فيها شيئاً . وزادت اخلاقهُ شراسة واعمالهُ فظاعة كما سيجيء

انتهت رواية شرشل بك نقلاً عن رجل اسمهُ الحاج علي كان بين رجال سليم باشا ثم خدم لادي ستنهوب المشهورة في بلاد الشام

وذكر الدكتور مشاقه حادثة السراري فقال لما عاد الجزار من الحج ارسل عساكرهُ لمحاربة لبنان بقيادة سليم باشا احد مماليكهِ وكان الضابط على عسكر الاكراد المتلا اسمعيل وكان مع سليم باشا صديقهُ ابرهيم قالوش من اهالي صفد الروم الكاثوليك وهو تربية المشايخ الزيادنة وكان شجاعاً كريماً يركب باربعمائة فارس من اتباعهِ وكان المماليك يحسبونهُ مثل واحد منهم . ولما وصل سليم باشا الى صيداء بلغهُ ان الجزار ارتاب ببعض نسائهِ واتهم المماليك بخيانتهِ فابعدهُ ليسعى في هلاكهم ثم قتل كل السراري وذلك انهُ اشعل فحماً كثيراً وكان يمسك المرأة منهنَّ بشعرها و يضع وجهها على الجمر وهو دائس على رقبتها حتى تموت وقد اماتَ سبعاً وثلاثين امرأة هذه الميتة الشنيعة . فلما بلغ سليم باشا ذلك صمم على قتل الجزار وتخليص البلاد من شرهِ فاتفق على هذا مع المتلا اسمعيل وبقية القوَّاد ومع صديقهِ ابرهيم قالوش ورجعوا الى مدينة صور ليأخذوا منها طعاماً لرجالهم وعليقاً لخيولهم فاقفل محافظ صور الابواب في وجوههم خوفاً من الجزار فتقدم ابرهيم قالوش وخاطب كبير اهل المدينة قائلاً لا بدَّ لرجالنا من الخبز ولدوابنا من العلف واذا شئتم فنحن نذهب الى رأس العين بشرط ان تعطونا ما يلزم لنا من مخازن الحكومة كما اعطيتمونا حين قدومنا من عكاء . فقال لهُ انكم اخذتم قبلاً ما اخذتموهُ بامر الجزار والآن لا نقدر ان نعطيكم شيئاً الاَّ بامرهِ . فعند ما بلغ سليم باشا هذا الجواب امر بان يهجم العسكر على المدينة فدخلوها عنوةً ونهبوا بيوتها وكنائسها واخذوا ملابس الرجال والنساء وخرجوا الى رأس العين وعملوا هناك سوقاً لبيع ما نهبوهُ فمن بقي عندهُ نقود لم تقع يد الناهبين استفكَّ امتعتهُ بها ومن لم يبقَ عندهُ نقود استدان من غيرهِ او من الخارج ووقع الضنك الشديد على بيت مشاقه لكن العسكر لم ينهب شيئاً من الاطعمة لان مخازن الحكومة كانت مشحونة بها . ولم يقتل في هذه الحادثة سوى اثنين من الشيعة وواحد من النصارى

وقام سليم باشا برجالهِ وسار الى عكاء ونزل خارجها وارسل الشيخ طاهر رسلاً الى المتلا اسمعيل كبير الاكراد فاستمالهُ عن سليم باشا وكان هو ورجالهُ عمدة العسكر وكان الجزار قد سلَّح كل من وجدهُ في عكاء فخرج بهم وابتدأ القتال مع المماليك ورجال القالوش اما المتلا اسمعيل فانحاز عنهم برجالهِ ووقع القتل سيفي رجال سليم باشا فلجأ الى الحزبة وفرَّ ابرهيم قالوش الى بلاد الحصن ولجأ الى اولاد موسى الحنَّا وكانوا حكام البلاد وكان معهُ اولادهُ

يعقوب وناصر والياس واسعد فاقتصّ الجزار اخبارهم حتى عرف انهم في ايالة الشام فالتمس من الدولة ان تولية عليها فولتهُ وللحال طلب من اولاد موسى الحنا ان يسلموهُ ابرهيم فالوش فسلموهُ اياهُ فقطع رأسهُ وهرب اولادهُ ولجأوا الى بكوات عكار ثم لمَّا صارت ولاية صيداء الى سليمان باشا تملوك الجزار اتوا اليهِ فرتب لهم معاشاً واسكنهم مدينة صور

واشار الجبرتي الى حادثة السراري فقال : — " واتفق انهُ (اي الجزار) استراب من بعض سراريهِ ومماليكهِ فقتل مَن قويت فيهِ الشبهة وحرقهم ونفى الباقي جميعاً ذكوراً واناثاً بعد ان مثَّل بهم وقطع انوفهم واخرجهم من عكاء وطردهم وشرَّدهم وسخط على مَن آواهم ولو في اقصى البلاد . وحضر الكثير منهم الى مصر وخدموا عند الامراء وانضوى نحو العشرين شخصاً منهم وخدموا عند علي بك كتخدا الجاويشية فلما بلغ الجزار ذلك تغير خاطرهُ عليهِ وقطع حبل وداده بعد ان كان يراسلهُ ويواصلهُ دون غيرهِ من امراء مصر . ولما فعل بهم ذلك تعصب عليهِ مملوكاهُ سليم باشا الكبير وسليمان باشا الصغير وهو الموجود الآن وانضمَّ اليهما المتآمرون غيظاً منهُ وحاصروهُ في عكاء ولم يكن معهُ الاَّ القليل من العساكر والفعلة والصنَّاع الذين يستعملهم في البناء فالبسهم طراطير مثل الدلاة واصعدهم الى الاسوار مع الرماة والطبجيَّة ورآهم الخارجون عليهِ فتجبروا وقالوا انهُ يستخدم الجن وكبس عليهم في غفلة من الليل وحاربهم وظهر عليهم فاذعنوا لهُ وتفرَّق عنهم المساعدون ثم تتبعهم واقتصَّ منهم وكاد البلاد وقهر العباد " انتهى

وذكر الامير حيدر الشهابي في حوادث سنة ١٧٨٨ ان المماليك قاموا على الجزار واطلقوا عليهِ اربع رصاصات وهربوا الى دار سليم باشا وكان سبب ذلك ان الجزار بلغهُ ان بين المماليك ونسائهِ مواصلة فعزم على قتلهم وترقَّب الى ان دخل بعضهم من باب السر فهجم عليهم يريد قتلهم فاطلقوا عليهِ الرصاص كما ذكر وخرج سليم باشا والمماليك من عكاء وتبعهُ اغوات العسكر واغوات الهوَّارة وابو عزَّة رئيس المغاربة . وما بقي عند الجزار من جميع العسكر سوى قائد الارناؤوط مع بعض المغاربة . ثم فصَّل تبييت الجزار للمماليك وقال ان ذلك كان بمشورة الشيخ محمد القاضي الى ان قال وقتل الجزار جميع السراري والمماليك الذين بقوا في عكاء

واختلاف الرواة والروايات مؤيد لما تقدم من تطرُّف الجزار في الظلم والاستبداد ومن ان النفوس التي الفت الهوان لم تعد تشعر بهِ والرجال الذين كان يسهل عليهم سفك الدم كسفك الماء لم يجسر احد منهم ان يفتدي قومهُ وبلادهُ بنفسهِ فيهجم عليهِ يخنجر او بسنجة ويريح الناس من شرهِ . ولولا الموت صديق المظلوم وناصر المهضوم ما أبقى ولاة السوء على احد من العباد